البحتري

في شمال الشام وعلى حدوده حيث يتصل بالجزيرة والموصل والعراق وعلى مجرى الفرات تقوم بلدة قديمة كانت فيما مضى مسرحا لحادثات سياسية ومقاما حربيا هاما، هي منبج مقر قائد جندي الثغور الشامية التي تتصل بحدود المملكة البيزنطية النصرانية وعلى مقربة منها تقوم مدينة غريبة صرفة احدثها السياسة العباسية حتى اتخذها الرشيد مصيفا تلك هي الرقة البيضاء وفي هذه الرقة التي لاتصلح الا لمراقبة منبج مقر الثغور ومقر عبد الملك بن صالح كانت تجري احداث ومناوشات ذكر بعضها التاريخ واغفل اكثرها وكان هؤلاء الشبان من العرب يتشوقون الى الاطلاع على هذه المشادات واكثرهم تروقه هذه الغزوات ويستهويه هذا السلب الذي يكسبه من الروم وكم كانت هذه المفاداة بين الروم والمسلمين معرض قوة وجلد وتقوى فمن منبج كانت تخرج الجيوش لتسد هذه الثغور ومن الرقة كانت تصدر الادارة القاهرة وكانت الرقة تزدهي بمياه الفرات وتمتد على جانبيه وتورق ظلال اشجارها الباسقة وحدائقها الغناء حتى كانت تتصل بالرافقة فتسمي بالرقتين وكأنها كانت الجنة الجميلة بعد تلك الصحراء القاحلة التي تتصل بالجزيرة العليا .

اما منبج فكانت بلداً جميلا كما يقول عبد الملك بن صالح « برة

حمراء وسنبلة صفراء وشجرة خضراء في فياف فيح بين قيصوم وشيح» وهذه الفيافي الفيح هي التي هدت هؤلاء الطائيين فجاءوها من قلب الجزيرة وعمروها فهم في حاضرة وبادية مما والقيصوم والشيح من صفات البوادي ويكاد هؤلاء الطائيون يكونون كل شيء في منبج فمنهم الامير ومنهم القائد ومنهم الملاك ومنهم القاضي ومنهم المؤذن واذا قلنا منبج فاننا نعني هؤلاء الاعراب الذين يروحون ويجيئون او يحضرون ويبدون وهذه القرى المبثوثة في جوارها تمد معينها ادانضب وترفد جيشها اذا اصيب ولم يكن هذا الجيش يقتصر على رد هجمات الروم او مهاجمتهم في الثغور بل كان يضرب به اقصى اطراف المملكة الممتدة الارجاء فهؤلاء بنو حميد الطوسي تراهم في البذوارشق يدفعون الخرمية وبعضهم يستشهد في اوديتها وتحت حصونها المنيعة وهذا محمد بن يوسف الثغري يضرب في قلب الصحارى حتى يصل الى بني ربيعة فيقوم أودها ويعيدها الى حمى الخلافة . هؤلاء الابطال المغاوير حماة الخلافة في غضون مائة سنة كان مقرهم منبج وكانوا يجوبون جوارها وهذه القرى والمدن من الرقة الى رأس العين الى نصيبين الى الموصل كانت مراعيهم وكانت حمام المنيع ومتنقلهم المرغوب واذا عن لنا بهيم ان نزوروا الحاضرة فهذه حلب اقرب ماتكون لهم والا فهذه بغداد قبلة آمالهم ومحط رحالهم

في سنة ٢٠٤ للهجرة ابصر النور في منبج ولد يكاد يكون ابوه مجهولا فسمي الوليد وهو ابن عبيد بن يحي المعروف في التاريخ بالبحتري ومع تنقيب الادباء والمؤرخين عن هذا الاب ومع مباهاة

البحتري بآبائه وتعديدهم لم يكن لهذا العبيدمن ذكر . اما امه فكانت من ربيعة وقد باهى بهذه الخؤولة ولا يمكن البت بانها امه لان الامهات عند العرب فيهن الجدات ايضا فهذا نسب باهى فيه البحتري بجدوده من اليمن في طيء وخؤولته من عدنان في ربيعة فكأنه ضم امجاد العرب وهي ماده غزيرة في الفخر يمكن لشاعر كالبحتري ان ينوعهـــا ويستثمرها ويتفنن في اظهارها

اما من هم اخوانه وكيف كان مقامه منهم ومن اخواته فالبحتري ضنين يكشف خفاياه خلافا لابن الرومي معاصره ولا يمكن ان نستفيد مايغني من قول صاحب الاغاني انه كان له اخ يجيمه ويبخل عليه .

لم نعلم بالتحقيق كيف كان يعيش هذا الفتى المغمور في منبـــج وجوارها ويحدثنا بعضهم انه كان يقول الشعر وهو صغير ومعلوم ان الشعر وان كان مظهر عبقريته يحتاج الى درس والى اطلاع ولا يعوز بيئة الشام وبيئة منبج خاصة من مجال واسع لهذا الدرس وهذا السماع وهذا الغدو الى مسجد منبج حيث رفع جده فيه الآذان لاول مرة كما يدعي البحتري انما اللهجة التي قال فيها الشعر وعمـــوده كما يصرح اكتسبها من اعرابها وخلصها ومن المعلوم ان طيئا لم تؤخذ لغتهـــا لمجاورتها السريان فكان عليه أن يتنقل من قبيلة الى اخرى ويغترف حيث يجد ولكنه لم يكن يترك منبج في هذا العصر بل كان يغدو ويروح ويمدح باعة البصل والباذنجان كما يقول مؤرخوه وهذا المراس وشدته في اول الامر يقوم به اود الوليد ونحن نجول في ديوان البحتري وهو المعين الحقيقي لمعرفتنا به فتراه يركب شأن شبان العبيديين

الطائيين مع اميرهم ويغزو الروم او يرافق الغزاه وقد وصف هـذا المشهد بانه عجيب او اعجب منظر وانه كان يؤم حلب ويتنقل في قراها وان احدى هذه التنقلات قادته الى قرية بطيـاس فرأى لاول مرة فتاة غسالة او ابنة غسالة راقته جداً وشغلت حياته وخلدت بشعره وردد حبها في مختلف ادوار حياته تلك علوة التي — لا نبيت الاوتار تخفرها — ولكنها مع سجينها وخفر بنات القري اخذت باكبر نصيب من شعر البحتري وهذه حلب وقويقها (بالطبع غير هذا القويق اليوم) قـد برز في شعره الاولي ولا نبعد اذا قلنا اننا لم نجد شعره في هذه الحقبة فالبحتري ضنين بهذا الشعر وهو كل ما يباهي به وقد جمعه بنفسه ونقحه بلا خلاف فحذف منه مالا يلائم الجودة وضاع بهذا الحذف حقبة جميلة من حياة البحتري الوليد الشريدة التي كانت تضرب من نصيبين الى حمص وربما الى جنوبها فهذا الشعر الذي نال به اول جائزة يجب ان يتوج به الديوان ولكن بالاسف ضاعت هذه القصيدة التي تواترت الروايات انه مدح بها امراء المعرة بوصية ابي تمام ولا تجـدها في ديوانه وان ماغلط به كاتب دائرة المعارف الاسلامية في مادة البحتري من ذكر قرية النعمان كانت غير المعرة كانت في زمن رجولتـه او اكتهاله .

تلك حقبة من الدهر لانعلم عنها الا الحدس والتخمين ولا نطمئن الى رواية الا عندما اصبح في العشرين يقول المديح الجيد كمديح محمد ابن يوسف الثغري وبني حميد وامثالهم من هؤلاء الامراء الطائيـين حتى تحط رحاله في بغداد وهي آخر المطاف عند هذا الشاب العبقري

وهو ولا شك جعل ينشر قصائده ومدائحه بين السوقة حتى توصل الى نديم الخليفة علي بن يحيى المنجم وهو اديب وشاعر ويحب الادباء ويقول البحتري :

مشاكلة الآداب تصرف همتي اليه وود بيننـــا متقدم

وجعل هذا يسوفه ويعده بان يقدمه الى الامراء والخليفة ولكنه لم يستطع او كان لايجد مايشفع بجرأة هذا الشاعر المتحفز لدور الخليفة ولما لم ينل أربه جعل يتقرب الى الوزراء والامراء واخيراً نفي بغيتـه في دار الخليفة المتوكل وهو تربه وقـــد وافق هواه فهو مع وزيره الفتح بن خاقان يرميان الى سياسة جمع كلمة العرب والخروج من العراق الى ضم جميع الاحزاب او التهرب من حزب بغـداد وشيعته وهذا شاعر شامي واهل الشام يرمون الى هذه السياسة يقف البحتري منشدا فيروقه جدا فيقال له ما كنيتك ؟ وهـذا سؤال يشرف فيجيب ابو الحسن وما للبحتري الشاعر الشامي وكنيـة ابي حسن [كنيـة علي ابن ابي طالب] فيقول تكنّ بغيرها فلا يليق بشاعر المتوكل ان يكون ابا الحسن فليكن ابا عبادة وليعرف بها وليغد وليرح على باب المتوكل وعلى باب الفتح وليجلس هذه المجالس الخاصة وليكن الغريب اديبـا فلا يتعرض لما لايهم الخليفة وليبعد عن الاحزاب مااستطاع فما حزبه الا حزب الخليفة وليس هواه غير هواه والمتوكل يقربه ويعطيه ولكن لايرويه وقد اعداه فالبحتري على دين خليفته يشرب ويسرف ولكن الاموال لاتواتيه فلا يستطيع ان يكون الا كما يريده الخليفه ثم تكون الحزبية في القصر ومنها تمتد الى الحاشية والى الوزارة والامراء وماسببهـــا

الا تعدد اولياء العهد وكانوا ثلاثة بالترتيب كما ارادهم المتوكل المنتصر ثم المعتز ثم المؤيد ومن يغالب القدر او من يصبر لاحكامه وما رفعة احدهم الا بموت الاخر او اذلاله وكان من السياسة الواقعية ان ام المعتز قبيحة تسير على ارادة الخليفة وبالتالي يسير على ارادتها وتقع الواقعة وينقسم القصر حزبين فيكون المتوكل متعصبا للمعتز ويكون المقربون يقولون بقوله ويكون ولي العهد الحقيقي المنتصر متألما من هذه الحال ويكون حزبه بالطبع على غير هوى الخليفة وهل كان ذلك غير هؤلاء الطالبيين ومن هم في حزبهم وهل البحتري الا في حزب المتوكل وعلى الطالبيين وان دافع عنهم بعض الشعراء السخفاء الذين كانوا يتقربون الى الخليفة بسبّ الامام علي وشيعته ثم تقع الواقعة ويسبق حزب المنتصر حزب المعتز او حزب الخليفة ويقتل الخليفة المتوكل ووزيره في آن واحد وينال البحتري نصيبه ضربة في ظهره بقيت اثارها طول حياته فتثور ثائرته وينشد قصيدته الرائية التي قيل عنها انها ابلغ قصيدة هاشمية وبالطبع يهرب من دار الخلافة ولكن الى اين ؟ ويكون وقت الحج فتراه يحج تقية وسياسة ويعود من الحج وقد استتبت الامور واصبح الخليفة المنتصر الذي كان يسبه زمن ابيه قد كسب ود الرعية وصفح عن اعدائه وعن حزبهم وبالاحرى ضرب حزب المعتز ضربة قاصمة وكان له ما اراد فترى البحتري يعود الى دار الخلافة ويمدح الخليفة ويسير على هواه ويهجو وزيره ابن الخصيب لما غضب عليه الخليفة .

ثم لا يلبث الخليفة ان يموت بعد ستة اشهر من مبايعته ونرى

الجند واهل الدولة يبايعون لابن اخي المتوكل باسم المستعين وهنـــا تكمن النار في الرماد فاين حزب المعتز وحزب قبيحة وكيف رضوا بان تسير الامور في غير مجراها اليس المعتز بعد المنتصر فمن اين جاؤا بهذا المستعين ولكن لابد للعـــاصفة من هدوء واستوى المستعين في خلافته ورأينا البحتري شاعر الخلافة ايضا يمدحه ويعدد مآثره ولكنه يبعد عن الحزبية اذ علمته تلك الضربة ليلة المتوكل ان يكون محترساً متحفظاً ثم يتمادى المستعين في سياسته الخاصة ويبحث عن قتلة المتوكل فيقتص منهم وان لم يكن بمحاكمة ثم يضيق على جنده من الموالي بالاموال والاموال عند قبيحة وحزب المعتز فتهتز المـــوالي الاتراك بالثورة فنرى المستعين ينزل الى بغداد من سر مرا وهناك يعتصم بهـا فيخاطبه الاتراك بالعودة فيسوف ويؤجل واخيراً ينـــادون بالثورة ويبايعون المعتز في سرمرا فيصبح خليفتان في وقت واحد المستعين في بغداد والمعتز في سرمرا وتكون الحروب وتكون الاهوال وتنتهي بفوز المعتز وحزبه وقتل المستعين ورجوع الخلافة الى سرمرا فاين كان البحتري في هذه الغمرة وهذه الاهوال ؟ يحدثنا التنوخي في نشوار المحاضرة انه كان مع هؤلاء العقلاء نظير صديقه ابي معشر الفلكي في نجوة من هذه الاحزاب وانه قد زار المعتز في السجن عنـــدما كان المستعين في سرمرا وانه مدحه وان ذلك كان برأي المنجم وانه بعد ان آلت الخلافة الى المعتز زاره البحتري ونال اكبر جائزة طمع بهـا وهي ستة آلاف دينار وبها اقتنى ضيعته دار السقيا في منبج .

وبالحقيقة ان هذه الحقبة وهي اربع سنوات كانت اخصب حياة

البحتري شعرا وادرهـا عليه مالا فقد اصبح خدن الخليفة والخليفة ابن قبيحة شاب في مقتبل العمر يحب الحياة ويحب مجيبها يشرب ويسرف ويركب وينم والبحتري ينال منه كل نوال ولما قتل المعتز رأينا البحتري اصبح شاعرا عاديا فقد مدح خليفته المهتدي الناسك ومن بعده المعتمد واخاه الموفق القائد المغوار وكل هؤلاء العمال والوزراء والقواد ولكن هذا المديح كان عاديا وفي اواخر زمن المعتمد رأينا البحتري في منبج دار استقراره يعيش عيش الاثرياء ويضحك من هـــؤلاء العمال في الديار القاصية عن دور الخلافة ويضحك من نفسه عندما يجدهـــا تصافح هؤلاء الزعانف .

أ أطلب انصاراً على الدهر بعدما ثوى منهم في الترب اوسي وخزرجي
مضوا انما قصدا وخلفت بعدهم اخاطب بالتـــأمير والي منبـج

وختم حياته في منبج ومات موت هؤلاء المدمنين مات بداء السكتة وقد نيف على الثمانين سنة ٢٨٤ هجرية .

قذارته

في الاغاني وغيره انه كان قذراً من اوسخ خلق الله ثوبا وآلة سيء الانشاد يتشادق ويتزاور في مشيته مرة جانبا ومرة القهقرى ويهز رأسه مرة ومنكبيه اخرى ويشير بكمه الخ ...

من اعجب مامر بي ان ذا العيب يبحث عنه في غيره ويلصقه به وان كان بريئاً منه ، فهذا الاصفهاني كما في ياقوت وغيره كان قذرا وسخاً بخيلا وتراه دائما ينسب هذه الخلال الى الشعراء والادباء ويتعقبها فيهم كانه بذلك يصدق قول الشاعر :

لحنها معرب واغرب من ذا ان اعراب غيرها ملحون

كيف يكون البحتري وسخا قذراً وهو جلس الخلفاء والعظماء من يقبل منهم في مجلسه مثل هذا فضلا عن ان الرواية لاتصدق الا اذا زكيت بشعر وصدق قول ولا عبرة بان تكرر في كتب فقد اخذ عن الاغاني كل من جاء بعده ولنعد الى الحقيقة الناصعة فهذا البحتري تقول في ازهر عصوره عصر المعتز يخاطب الخليفة:

حملت على عشر من البرد مركبي عجالا عليهن الشكيم المحلق
واكثرت زادي من بدور تتابعت لجودك فيهن اللجين المطرق

ومنتسبـــات للوجيه ولاحق كميت يسر الناظرين وابلق
ومن لبس فازت بلبسك فاغتدي لها ارج من طيب عرفك يعبق
عليها رواء من حمائل مرهف صقيل يرد الطرف عنه فيزلق

فمن كانت ثيابه لباس الخلفـــاء يعبق منها الاريج كيف تكون وسخة قذرة ، وهؤلاء الشربُ ومنادمتهم لها لباس خاص كما في كتب الادب والتاريخ كيف يصبرون على مثل هذه الصفة في الاغاني ؟

اما الشق الآخر وهو سوء الانشاد فالرواية في الاغاني عن جحظة عن الصيمري وهذا الصيمري ومثله عباسي اخر يعرف بابي العبر لهما حوادث واقوال ينبو عنها الادب وقد استثمروا الرقاعة وكانت لهـا سوق رائجة فاذا روي الصميري فروايته محدودة وخصوصا انه غلب البحتري وأخجله ولا يبعد ان يكون حدث مثل هذا عند الخليفة مادام من منادميه مثل ابي العبر والصميري ولكن الاقـــوال التي تؤدى في معرض الهزل والرقاعة لاتصلح مرجعاً لتاريخ ولا تقرير حقيقة .

بخله

وكما يقال عن زرابة لباسه يمكن ان يقال عن بخله ويدحض هذا القول انه من الذين يشربون ويسرفون وما اجتمع الشراب والبخل لاحد وفي الديوان ما يثبت خلاف هذه الرواية يقول البحتري من قصيدة في المتوكل :

من شاكر عني الخليفة في الذي اولاه من طول ومن احسان
حتى لقد افضلت من افضاله ورأيت نهج الجود حيث اراني
ملأت يداه يدي وشرد جوده بخلي فافقرني كما اغناني
ووثقت بالخلق الجميل معجلا منه فاعطيت الذي اعطاني

وقد كان ذلك ديدنه وقد اعاده في مديح الفتح وزير المتوكل :

قد قلت اذ اخذت منع الحقوق واذ حملتها جائراً فيها ومقتصد
هن الامير مجد في تفضله فمنجز لي في الالف الذي وعدا
اعن على كرم اخى على نشبي وهمة اخلقت اخلاقي الجددا

وفي الروايات انه لم يكن يدخر من هذه العطايا شيئا فقد روى القاضي التنوخي في نشوار المحاضرة الجزء الحادي عشر ان المعتز بعد ما استتبت له الخلافة ودخل عليه البحتري وانشده اعطاه ستة الاف دينار وقال له والرواية لسليمان بن الحسن بن مخلد عن البحتري

وكأني بك وقد بادرت فاشتريت غلاما وجارية وفرسا وفرشا فاتلفت المال لاتفعل فان لك فيما تستأنفه من ايامك معنا ومع وزرائنا واسبابنا اذا علموا موقعك منا غناء عن ذلك الخ ... منه يتضح ان البحتري كان مشهورا بالتبذير لايبقى على المال وكيف يجتمع البخل والتبذير الا في رواية موتور .

نخاسته

وفي الاغاني انه كان له غلام يسمى نسيما وكان غلاما روميا ليس بحسن الوجه قد جعله بابا من ابواب الحيل على الناس فكان يبيعه ويعتمد ان يصيره الى ملك بعض اهل المروءات ومن ينفق عنده الادب فاذا حصل في ملكه شبب به وتشوق اليه ومدح مولاه حتى يهبه له فلم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم فكفي الناس امره هذه رواية مشهورة وننقل برغبة لما فيها من الطلاوة والغرابة. شككت جداً في امر هذه الرواية ولم استطع دحضها حتى وقفت على كتاب عبدالله بن المعتز المسمى طبقات الشعراء في مدح الخلفاء والوزراء وقد نشره عباس اقبال على نفقة لجنة جب التذكارية فاذا فيه قطعة نفيسة مختصرة تفي المطلوب وكان عبدالله أعرف الناس بالبحتري وكان معاصره وقد مدحه البحتري وكان شاعر ابيه المعتز فاراد ان ينصف شاعر الخلافة ويدحض عنه مثل هذه الفرية قال:

اسمه الوليد بن عبيد ويكنى ابا عبادة. حدثني علان بن محمد قال هجا البحتري ابا الفضل بن الحسن بن سهل فتركه اياما واظهر قلة المبالاة والاهمال لهجائه ولم يظهر الموجدة لذلك. حضره يوما فقال له يا ابا عبادة تبيعني غلامك نسيما فقال كيف ابيعك من لو فارقته ساعة فارقتني روحي فقال اعطيك به رغيبة فقال وكم تعطيني قال اعطيك

الف دينار قال لا افعل قال اعطيك الفي دينار فقال له احضر المال فباعه وتسلمه أبو الفضل فما مر للبحتري يوم حتى قامت قيامته وندم فوصل غدوه برواحه الى باب ابي الفضل يسأله الاقالة وهو يأبى عليه فلما عيل صبره كتب اليه :

ابا الفضل في تسع وتسعين نعجة　　غنى لك عن ظبي بساحتنا فرد
أتأخذه مني وقد اخذ الجوى　　مآخذه ممـــا اسر وما ابدي
وتخطو اليه صبوتي وصبابتي　　ولم يخطه بثي ولم يعده وجدي
وقلت اسل عنه والمنية دونه　　وكيف سلو ابن المفرّغ عن برد

وابن المفرغ شاعر كان له غلام اسمه برد فباعه وندم وله فيه اشعار كثيرة فقال ابو الفضل ابيعكنه بجميع ماتملك فقال له افعل فباعه بجميع ملكه واشهد عليه ورد الغلام اليه فلما كان من الغد رد عليه الكتاب واقاله من جميع ذلك وحمل اليه صلة وقال له اياك ان تهجو الاحرار فان لهم مكايد يضل فيها هجوك ومدحك هذه رواية ابن المعتز اثبتها بحروفها وفي الديوان ما يثبت هذه الرواية ويزكي قول صاحبها فقد هجا البحتري ابراهيم بن الحسن بن سهل المكنى ابا الفضل بهذه الابيات

ابا الفضل انت فتى فارس　　لك الشرف الخسراني كله
اراك تحرم لحم الجزور　　ولو قام الف نبي بحله
ولغضب للفيل ان ازلقو　　ه لان الاعاجم كانت تجله

وكانت بين البحتري وابي الفضل مودة وقد مدحه كثيرا ولم نجد في الديوان ان البحتري يبيع نسيبا لغير ابي الفضل هذا واقتصار ذكره على هذا مصداق لقول ابن المعتز

خلقه

اما وقد دفعنا عنه هذه الفريات فما علينا الا ان نذكر الوجهة الايجابية من اخلاقه واولها واشرفها حسن الوفاء وفي كتب الادب مايجتمع مع الديوان على صدق هذه الخلة ونسبتها اليه .

قيل للبحتري ان رثاءك لمحمد بن يوسف وآله خير من مديحهم قال ذلك طبيعي فانا كنا نمدح للرجاء واليوم نرثي للوفاء ومن تمام الوفاء ان تفضل المراثي المدائح ومن المعلوم ان الوفاء يوافق طبع الشاعر المطبوع فلو كان لئيما لكف عن الوفاء ولا مطمع في رجاء منهم .

ودونك حادثة نادرة للشعراء وخلاصتها ان البحتري نزل على احمد بن علي الاسكافي فمدحه فلم يثبه فهجاه ثم عاد فهجاه واستتبع فهجا ابن ثوابة الكاتب فما كان من ابن ثوابة الا ان بعث اليه بالف درهم وثياب ودابة بسرجها ولجامها فرد الجائزة وقال (قد اسلفتكم اساءة لايجوز معها قبول رفدكم)فكتب اليه كتاب كاتب واضعف له الجائزة فاحرجه فقبل الجائزة ومدحه بليغاً بعاطفة شكر .

وله من المواقف المشرفة مايرفع رأس كل شاعر

هذا شري هاشمي يسمى طاهر بن اسماعيل بن صالح كان في حلب ومن أشرافها فمدحه البحتري وكان هذا مع شرفه اديبا ظريفا شاعرا ولم نجد بكل اسف قصيدة البحتري في الديوان انما يقول البحتري انه

بعد ان مدحه باع بيته بثلاثمائة دينار وبعثها اليه وكتب اليه هذه الابيات

لو يكون الحباء حسب الذي انـ ـت لدنيا له محل واهـــل
لحبيت اللاجين والدر واليـــا قوت حثوا وكان ذاك يقـــل
والشريف الظريف يسمح بالعذ ر اذا قصر الصديق المقـــل

يقول البحتري فرددت عليه الدنانير وزدتها خمسين دينـــارا واجبته بهذه الابيات

بابي انت انت للـــبراهـل والمساعي بعد وسعيك قبـــل
والنوال القليل يكـــثران م شاء مرجيك والكثير يقـــل
غير اني رددت برك اذا كان م ربا منك والربا لايحـــل
واذا ماجزيت شعراً بشـعر يبلغ الحق فالدنانير فضـــل

وان شاعر يرد جائزة كرم ويزيد عليها من ماله الخاص لهـو شاعر غير ما اراده الاصفهاني ولو جئنا نتتبع هذه المواقف من البحتري لادركنا كيف كان له المقام الاول بين شعراء عصره باحترام .

هذا الخجل وهذا الحياء من الرذيلة مع ما كان عليه من الشره في حب الدنيا يرينا كيف تغلب البحتري على جميع شعراء عصره وكيف احتكر جوائز الكرام .

صلته بابي تمام

صلة البحتري بابي تمام؛ صلة قربى واستادية . اما القربي فتجمعهما طي وان كان ابو تمام من جنوبي الشام والبحتري من شماليها وكلاهما قروي اغرم بحب البادية وفخر بالطائية ولكن البحتري عاش بعد ابي تمام مايقرب من خمسين عاما وهي عمر الشاعر الحقيقي . كان ابو تمام العلم الفرد في ربوع الشام وفي دار الخلافة لما كان البحتري صبيا ناشئا . وكم خطر للبحتري ان يرى هذا الشاعر الطائي الذائع الصيت، وكم ود ان يكون امامه المبتدي بامه وقد بلغ غايته وليس على المجتهد شيء بعسير فقد لقيه ولكن اين ؟ . يقول بعضهم في حمص وكانت الشعراء تعرض شعرها على ابي تمام فانشده البحتري فاعجب بهذا الشعر الجديد وبعد ان سأله عن نسبه وعن نشبه بعث بكتاب الى اهل معرة النعمان يذكرون نصه :

« يصل كتابي على يدي الوليد بن عباده وهو على بذاذاته شاعر فاكرموه » .

وظاهر ان كلمة ابن عبادة غلطة نسخ فلم يكن الصولي الذي روى هذا الحديث يجاهل ان الكنية هي (ابو عبادة) وانهم اكرموه واعطوه اربعة الاف درهم وهي اول جائزة نالها .

والرواية الثانية انه لقيه عند الامير محمد بن يوسف الطائي وان البحتري دخل على الامير فانشده قصيدته :

أأفاق صب في الهوى فافيقا　　ام خان عهدا ام اطاع شفيقا

فلما اتم انشادها قال له احسن الله اليك يافتى فقال ابو تمام هذا شعري علقه هذا الفتى فسبقني اليه فتغير الممدوح ولام البحتري فقال له: هذا اعزك الله شعري فقال ابو تمام سبحان الله يافتى لا تقل هكذا ثم انشد ابو تمام بعض ابيات القصيدة فقال الامير للبحتري نحن نبلغك ماتريد ولاتحمل نفسك على هذا الامر فخرج البحتري متحيرا لايدري مايقول وقصد ان يسأل عن ابي تمام من هو واذا بالممدوح قد استرده اليه وقال له جئنا عليك اتدري من الرجل فقال لا قال هذا ابن عمك حبيب بن اوس فقم اليه فقام اليه البحتري وعانقه ثم اقبل عليه ابو تمام يصف شعره و يمدحه وقال له ، انما مزحت معك فلزمه البحتري بعد ذلك .

ونحن نميل الى هذه القصة لان قصة معرة النعمان ضعيفة واهنة فما راينا شاعرا يمدح اهل مدينة بل يمدح اميرا يعينه او امراء آل بيت ولم نعرف من كان اهل معرة النعمان في هذا الزمن الا انهم مشايخ من آل سليمان بن عبدالله جدود المعري ابي العلاء وعلى كل حال فلم يرد ذكرهم في شعره وقد جمع البحتري شعره فاما ان يكون شعره فيهم سخيفا لا يرضى عنه — وقد رضيه ابو تمام — فاهمله وترك كل هذا الحديث او تكون هذه الرواية موضوعة .

اما الرواية الثانية فتصدقها القصيدة في الديوان وهي تدل على بدء عهده بالشعر ومحمد بن يوسف الطائي من ممدوحي ابي تمام وما رأينا ذكر حمص في بدء شعر البحتري مذكورا في الديوان او ملازما اخباره

وفي رواية ان البحتري لازم ابا تمام سنة واحدة فتكون تلك السنة ٢٢٨ على الاكثر او ٢٣٠ على الاقل وعاش البحتري بعدها ٥٤ سنة على اقل تقدير .

ويزيد هذه الرواية صحة ان ابا تمام في اخر ايامه كان على بريد الموصل وكانت الموصل محل اقامته وبها مات والبحتري كان يجوب اطراف الجزيرة العليا ويقصد امراءها في هذا العصر ولم نسمع ان ابا تمام جاء حمص او الجنوب في آخر ايامه .

اما ان البحتري درس شعر ابي تمام فلا يعني هذا انه درسه في حياة ابي تمام بل اطلع عليه وقد جرب في اول عهده بالشعر ان يسير على خطاه وقد ترسمها حتى اوصاه كما في جميع كتب الادب تلك الوصية التي تدل على ذوق ابي تمام في الدرس والشعر وهذه هي الوصية ...

« تخير الاوقات وانت قليل الهموم صفر من الغموم واعلم ان العادة في الاوقات ان يقصد الانسان لتاليف شيء او حفظه في وقت السحر وذلك ان النفس قد اخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم فاذا اردت التسبيب فاجعل اللفظ رقيقا والمعنى رشيقا واكثر فيه عن بيان الصبابة وتوجع الكآبة وقلق الاشواق ولوعة الفراق واذا اخذت في مدح سيد ذي اياد فاشهر مناقبه واظهر مناسبه وابن معالمه وشرف مقامه وتقاضى المعاني واحذر المجهول فيها واياك ان تشين شعرك

بالالفاظ الزرية وكن كانك خياط يقطع الثياب على مقادير الاجسام واذا عارضك الضجر فارح نفسك ولا تعمل الا وانت فارغ القلب واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة لحسن نظمه فان الشهوة نعم المعين وجملة الحال ان تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين فيما استحسنه العلماء فاقصده وما تركوه فاجتنبه ترشد ان شاء الله

فهل عمل البحتري بهذه الوصية ؟ لايسع القائل الا الاجابة بالسلب فما ابعد الفرق بين طريقتي ابي تمام والبحتري وهذه التهم التي تكال للبحتري كان يلصقها به الموتورون الحساد نظير ابن الرومي الذي ابقى لنا اثرا منها :

والفق البحتري يسرق ما قال ابن اوس في المدح والتشبيب
كل بيت له يجود معناه　　فمعناه لابن اوس حبيب

فللبحتري معان كثيرة جيدة ليست مسروقة عن ابي تمام وان كان قد تاثر به في اول امره حينما كان ناشئا يأتم بالشعراء القدماء وعندما اضطلع بالشعر اختط لنفسه الطريقة البحترية التي هي نسيج وحدها وهذه المعاني التي جهد صاحب الموازنة في ان يردها لابي تمام هي معان مشتركة لاسبيل الى نسبة السرقة اليها وهناك حقيقة من الموافق ان تعلن — الشعر شيء ومعانيه شيء آخر المعاني مشتركة كما يقول ابن الاثير ولكن الشاعر الفحل الذي يتنخل القوالب والاساليب في اظهارها وليس ابرع من البحتري في اختيار هذه الطرق اما وصية

ابي تمام وكن كانك خياط يقطع الثياب على مقادير الاجسام فقد عمل بها البحتري وقصر ابو تمام فيها جدا ونظرة واحدة الى الديوانين يبان الحقيقة .

هجاء البحتري

لانريد بهذا درس الهجاء عند البحتري وانما نقصد رواية مشهورة خلاصتها قبل ان يموت دعا بابنه ابي الغـــوث وامره بان يحرق كل ماقيل في الهجاء لان الهجاء اذا بقي روي وللناس اعقـاب يورثونهم العداوة والمودة واخشى ان يعود عليك من هـذا شيء في نفسك او معاشك لافائدة لك ولا لي فيه فعمل ابنه باشارته .

وفي ديوانه كثير من الهجاء فهل عمل ابو الغوث برأي ابيه لو عمل فمن اين هذا الهجاء؟ لنأخذ شعر البـحتري فنرى رأيه في الهجاء .

وتختـش للهجـــاء قلـت له　　وخاف عنـدي جـريرة البخل
ودي لو قد كفيـــت من قبل　　الدهر كما قـد كفيـت من قبلي
حسبك ان تكرم المديح　　وما يؤثر من شـاهد ومن مثلي
اغـناني الله بالكثـــير وما　　اغنى عن الادنياء والسفـل

هذا رأي صريح يرجع باسباب الى رأي بشار ان الهجاء مثل المديح وسيلة لكسب المال فليس هو عند البحتري كما كان عند ابن الرومي معاصره تفريج كربة او مظهر خلقي هو وسيلة وكفى ومن العلوم ان ابن الرومي هجا البحتري شر هجاء واقزعه وكان البحتري يرسل اليه بشعره في الغزل وبالمال احيانا ويقول هذا هو الشعر فلا عجب

اذ رأينا البحتري في آخر ايامه يندم على هذا المظهر القبيح في شعره . اما ما نسب اليه من وصية ابي الغوث فقد ذكره في شعره بقوله

جعلت لساني دونهم ولو انهم اهابوا بسيفي كان اسرع من طرفي

واني لئـم ان تركت لاسرتي اوابد تبقي في القراطيس والصحف

وهو يعني بهذه الاوابد هذا النـوع من الشعر الذي لم يكن يرضاه ونوفق بين صدق الراوية المزكاة في الديوان وبين ماله من الهجـــاء ان هجاءه كان اكثر من هذا واقزع وافحش واعني بالتفصيل ما هو في نسخة الاستانه ومحزوف من نسخة بيروت .

بهذا القياس يمكن ان نعلم صدق الروايات عن البحتري وعدمه وهو مظلوم جد مظلوم اذا صدقنا كل هذه الراويات عنه .

ضياع البحتري

حرفة الادب مشهورة فكيف بمن ورث الفقر ولزمه في ايامه الاولى وهنا يجتمع البحتري مع كثير نوابغ الشعراء في اول امرهم فقد كان بده حاله شريدا طريدا يضرب في الافاق يلتمس الرزق وقد ورد كثير من شعره في هذه الحقبة وقد اتخذ ابا تمام اماما له .

تقاذف بي بلاد عن بلاد　　كاني بينها جمل شرود
اذا سجع الحمام هناك قالوا　　لفرط الشوق اين ترى الوليد

وهي قصيدة تعبر عن نفسه في هذا العمر يقولها لرجل من نصيبين.

وما زال ذلك رايه حتى ترك الشام الى العراق وهناك اثرى وجعل يذكر الضياع والخراج والتقسيط .

لقد تركت بقنسرين افئدة　　محرومة وعيونا ذات تسهيد
اما توجهت قصد الشرق معتسفا　　باليعملات حرون اللين والبيد
وان صرفت ولم تصرف لبائقه　　عن الخراج فلم تصرف عن الجود

ثم تراه يعجب جدا أن يطالب بهذ الخراج وهذا التقسيط .

وما انا والتقسيط اذ تكتبونني　　وتكتب قلبي جلة الناس او بعدي
سبيلي ان اعطى الذي تطلبونه　　وشرطي ان يجري علي ولا اجدي
صحبت اناساً اطلب المال عندهم　　فكيف يكون المال مطلبا عندي

ونراه يذكر اولاد المدبر واخصهم احمد وهو الذي رتب الخراج ولا سيما

في الثغور الجزرية والشام يذكر هذه الضياع ويطلب ان يرفع عنه الخراج .

ولم لا اغالي بالضياع وقد دنا ... على مداها واستقام اعوجاجها
اذا كان لي تربيعها واغتلالها ... وكان عليك كل عام خراجها

فمن اين جاءته هذه الضياع . في رواية الديوان انه اقطعها من اضياع الفتح بن خاقان وفي حادثة ان أمل جارية الفتح طالبته بها في مجلس ابراهيم بن المدبر وقد قال البحتري فيها شعرا خالدا وفي رواية التنوخي ان الضياع قد اشتراها من الاموال التي اعطاه اياها المعتز ورواية الديوان رواية الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ وهو اقرب من كتب عن البحتري ومن المعلوم ان الفتح بن خاقان قتل مع المتوكل وان خلفاء المتوكل كانوا يجفون البحتري ولم يكن من المعقول ان يقطعوا البحتري اقطاعه كما اننا لم نسمع بالضياع عند البحتري الا بعد المعتز ويصرح التنوخي انه اشتراها وانها في منبج اوباب منبج ويسميها ياقوت باب السقيا .

وفي الديوان مغالطة . يقول البحتري لابي صالح :

وقد غدت ضيعتي منوطة ... بحيث نيطت للناظر الزهره
اريد بالشعر ان تعود فما ... اقطع فيما اروم شعره
حكم من الله ارتضيه ولا ... ترتاب نفسي في انه خيره
ان ردها السعي والدؤب فقد ... وفيت في السعي اشهرا عشره
وان قضى الله ان تبين فقد ... كانت فبانت من اهلها البعره

وبالرجوع الى التاريخ نعلم ان هذا (ابا صالح) ويسمى عبد الله بن محمد بن يزداد كان وزيرا للمستعين [٢٤٨ – ٢٥٢] اي قبل المعتز فالضيعة هذه ليست باب السقيا في منبج ويزيد هذا الامر تعقيدا انه يتمثل بذهاب البصرة وكان ذلك في زمن المعتمد سنة ٢٦٥ فالظاهر ان كلمة [ابي صالح] خطأ صوابه [ابن صالح] وقد مر مثل هذا عند القول عن (ابن عبادة) بدلا من (ابي عبادة) ويقصد بابن صالح احمد بن صالح بن شيرزاد القطربلي وكان كاتبا فاضلا مجيدا في النظم والنثر وزر شهرا للمعتمد ثم مرض ومات سنة ٢٦٦ فتكون الضيعة هذه باب السقيا في منبج ولا يجوز ان يكون ذهاب البصرة خطأ لانه جاء قافية ووزنا .

يلخص هذا ان الضيعة هي باب السقيا فقط وانها ابتيعت بعد المعتز وقد ورد ذكر هذه الضياع بعد البحتري اذ احتفظ بها ابناؤه وحفدته وقد ذكر المتنبي حفيديه عبيد الله وابا عبادة بن ابي الغوث ابن البحتري وذكر التنوخي في نشوار المحاضرة ان احد الولاة (الحسن ابن ثوابة) اراد ان ينتزعها من يد ابن ابنه ابي الغوث فجاءه وانشده شعر البحتري فردها عليه .

شعر البحتري

من المتناقضات ان سهولة التعبير تصرف النقاد والادباء عن الدرس لعدم الحاجة اليه فتكون النتيجة ان هـذه السهولة تكون مدعاة الى التعقيد والصعوبة وهذه تنطبق تماما على شعر البحتري فاننا لم نجد اديبا ولا ناقدا درس شعر البحتري كما يجب الا اذا اعتبرنا اظـــهار السيئات نقداً فيدخل بذلك فصل للمرزباني في موشحه وكتيب للعمري باسم عبث الوليد اما بقية ما لدينا من هـذه الاخبار في كتب الصولي والاغاني فلا يشفي غليلا ولا يقف باحث عنـد غاية ومتى علمنا ان شاعرا كالمتنبي درسه مايزيـــد على خمسين شاعرا لغويا واديبا نعلم صعوبة درس البحتري بالنسبة الى سائر الشعراء من اهـــل طبقته.

اول ما يبدهك من هذا الشعر كثرته وهذا المديح غير المتناهي فيه فقد رتب على نمط ليس حسب التاريخ ولا على القوافي ولا بالابواب بدأ بمدائح المتوكل ثم وزرائه ثم عماله ثم بالخلفاء من بعده ولكن على غير ترتيب حتى مدائح المتوكل فمنها في اول الديـــوان ومنها في آخره واغرب مافيها ان بعضها مكرر بدون قصد. وبعضهـــا متوج بالسبب في القول وبعضها بـــدون سبب وفيه من التشويش مايذهل فلنبدأ بجلاء بعض هذه الغوامض.

ان الديـــوان نسختان احداهما طبعة الجوائب في الاستانة وفي

آخرها (وهذا الكتاب نقل عن نسخة بخط علي بن عبد الله الشيرازي كان كتبها بمدينة تبريز في سنة اربع وعشرين واربع مائة في شهر رمضان) وقد طبعت على علاتها وفيها شأن طبع الجوائب ورأي الشدياق ذكر كل شيء والثانية طبع المطبعة الادبية في بيروت وقد علق حواشيها وضبط شكلها رشيد عطية وهذه الطبعة احدث من الاولى وقد نقلت عنها ولكن بعد حذف الابيات التي لايليق ذكرها وبعض الابيات المغلقات اما لتصحيف او تحريف او بعد معنى كاستعارة غريبة او ما شاكل على كل حال فهي ابيات لاتتعدى المائة وقد رأيت قصيدة المعتز حين ولي الخلافة بالاجماع وفيها هجاء المسمين في تاريخ الطبري لاتتفق مع رواية الديوان وهي في الطبري اطول ويقول الصولي ان البحتري هو الذي جمع ديوانه وقد يكون اسقط منه مالم يرضه وعلى كل حال فهذا الساقط من طبعة بيروت لايليق الدارس المنقب وعندي انه خيرا فعل لاننا في هذه الايام وقد تغيرت مجالسنا ومدارسنا لايليق بنا ان نذكر هذه الاوساخ

ب — كثرة المدح . ممدوحو البحتري كثر فيهم ستة خلفاء عاصرهم وعاشرهم من المتوكل الى المعتمد ومدح وزراءهم وعمالهم وقوادهم ومن يتصل بهم وقد عددت هؤلاء الممدوحين فاذا بهم يقاربون المائة ومديحهم في رأي البحتري قوله :

بدأت بحق الاصدقاء ولم اكن لاجعله لفقا لحق المعارف
وساويت بين القوم في شكر سيبهم وهم درج من سوقة وخلائف

هذه حقيقة بعلمها الشاعر بدأ بالاصدقاء ثم بالمعارف ثم بالعظماء ثم

بالخلفاء ولم يكن هذا الترتيب مرعيا دائما فهو يمدح الخليفة في الوقت الذي يمدح فيه وزيره او من يقدمه اليه اما قوله ساويت بين القوم في شكر سيبهم فهذا حقيقة ما كان المديح الا شكرا على السيب والسيب جزاء المديح ولا يبعد فهم هذا الدور المنطقي فالبحتري شاعر سؤدد يبيع ثمينات المكارم والمجد

وليس درس هذا المديح يصعب ففيه تكرار وفيه مشابهة وفيه تمثيل والحقيقة ان المديح هو كل شعر البحتري يبدأ بالغزل حسب الاصول فهو رقيق جدا واحيانا مرقص يشوق الى اتمام القصيدة ثم يذكر فيها هذه الافكار المتسقة وهذه المعاني المبتكرة واحيانا هذه الحادثات النادرة الوجود التي لا تعلمها الا بعد مراجعة الوف الصفحات في كتب التاريخ والادب وقد صرف مدة طويلة ما يزيد على ستين سنة وهو ينشد الشعر وقد جاب اكثر انحاء المملكة وعاصر خلفاءها وقوادها وسار معهم وحادثهم وذكر كل هذا في المديح وقد هلك الذين كانوا يفهمون ويدركون هذه الحادثات وليس من يعلمها الا ذو العلم الذي اوتي جلدا على المراجعة والتنقيب فالمديح عند البحتري يشبه الرواية عند ادباء اليونان وغيرهم فيها القصة مشوقة للمطالعة والمقصود درس الاخلاق والطبيعة والنهي عن المنكر والحث على الاخذ بالمعروف واكثر هذه الصفات في مديح غير الخلفاء فقد قصر مديح الخلفاء على ما كان متعارفا وقصر القصائد لان الخلفاء لم يكونوا من العلماء ولم تتسع صدورهم لهذه المعاني البعيدة ولو اخذنا قصيدة واحدة للبحتري لرأينا فيها هذه الخصائص، لنأخذ قصيدة في مديح المعتز بدون

ان تتخير وتمكن كيفما اتفق لنا :

ان سير الخليط حين استقلا　　كان عونا للدمع لما استهلا
تلك ايامنا الذواهب من اح　　سن عيش مضى ودهر تولى
وخيال ألم منها على سا　　عة هجر فقلت اهلا وسهلا
ما أرضيع الهوى ولا ذبي الحا　　ل الذين ضيع الهوى وتخلى
سكن مغرم بهجري يزدا　　د صدودا اذا انا ازددت وصلا
ومعاذ الاله ان اتعزى　　عنه طول الحياة او اتسلى
قد لبست الهوى وان كان ضرا　　وتحملته وان كان ثقلا
وتذللت جاهداً لمليكي　　وقليل من عاشق ان يذلا

هذا تقريبا هو غزلها ولا تجد فيه كلمة نابية لاذوقك وتزيدك رغبة في هذا الاطلاع وهذه الرنة الموسيقية فهي بلا شك تجذبك للاطلاع ومواصلة القراءة وقد بلغ البحتري قصده . لنكمل فنجد ما يريد ان يقول =

اصبحت رتبة الخلافة للمعـ　　ـتز بالله منزلا ومحلا
جمع الله شملها في يديه　　ورآه لها مكانا واهلا
وليت نصره الموالي فاعطتـ　　ـه علو السماك او هو اعلى

هذا تاريخ ناطق منظوم ليست الخلافة للمستعين وان الموالي قاموا فنزعوها عن المستعين الى المعتز ليس البحتري يقول ان ممدوحه اصبحت له الخلافة منزلا ومحلا لانه كان في سر من راى وكان المستعين في بغداد وبعد ذلك اصبح الخليفة بالاجماع لذلك قال جمع الله شملها في يديه ولا بد ان يذكر الحقيقة وهي ان الموالي (الاتراك) نصروه فاعطوه الخلافة وهي علو السماك او اعلى .

ثم يذكر صفات هذا الخليفة هو البحر والبدر على عادة المادحين ثم وهو الشاب لابس حلة الوقار ثم يعود فيذكر انه في محض النجار من قريش وبالطبع لاتدين العرب الا لهذا الحي من قريش ثم يذكر آباءه عم النبي (العباس) والحبر (عبد الله ابنه) والسجاد (محمد بن عبد الله) والكامل (اظنه المنصور) ثم يعين ذكر مناسك الحج زمزم وافنية الكعبة والحجر والصفا والمصلى (هذا درس كامل في مناسك الحج) ثم يقول هؤلاء اركان الخلافة :

من ابى حبهم فليس من اللـ ـه ولوصام الف عام وصلى

وهو يعني بمن يشايع غيرهم مذهبا وسياسة ثم يمايز بينه وبين (المستعار) ويعني به الخليفة المستعين ويفاضل بين اخلاقها وبالطبع يفضل الممدوح على المستعين المخلوع المقتول ويختمها بقوله

طالعتك السعود وانسكب الغيـ ـث رذاذا في ساحتيك ووبلا

ويظهر ان المطر قد سقط في زمن الانشاد فاتخذها الشاعر وسيلة للمقارنة بين غيث الخليفة وغيث الامطار ويفضل الخليفة ويقول :

عارضتك الانواء فيها سماحا وحكتك السماء هطلا وسجلا

فهو يشبه السماء بفيئه والانواء بعطاياه

هذه قصيدة في خليفة شاب لا يهتم الا بهواه وحب الحياة فلم يكن يطيل المديح لئلا يضجره ولم يكن يغرب في المعاني لئلا يثقل على ذهنه ومن اعرف من البحتري بالمعتز واخلاقه .

اما اذا كان الممدوح واسع الاضطلاع كثير جهات الرأي فانه يتفنن في هذا المديح ويظهر من مكنونات نفسه ومن لمحات الشعر

مايزري بكل نفيس .

فعلمنا من غزله المسافة بين الشام والعراق :

بعثت طيفهـــا الي ودوني　　وخدشهرين للمهـــاري العتاق
زار وهنا من الشـــآم فحيـا　　مستهاما صبا باهـــل العراق

وعلمنا مذهبه في الشرب :

لاأشرب الراح او تجلو السماء لنا　　شمس الربيع وتهى الروضة الانف

والمـذهب الفارسي ان يـوم الشرب يوم المطر :

ارى غـيما تؤلفـه رذاذ　　واحسبه سيأتينـــا بهطـــل
فمين الرأي ان تأتي برطل　　فتشربـه وتدعو لي برطـــل

وعلمنا ابا حيته وشرهه :

مغرم بالمدام اترع كأساً　　ساطعاً ضوءها وانسف دنا
حيث لا ارهب الزمان ولا الـ ـمي الى العاذل المكثر اذنا

ونرى نظرته الصائبة في الغزل والتصابي :

ومع الشيب على عـــلاته　　مهلة للهو حينـا والغزل
خيلت ان التصابي خرق　　بعد خمسين ومن يسمع يخل
نطلب الاكثر في الدنيا وقد　　نبلغ الحاجة فيهـا بالاقل

ونقرأ ألمه من الحظ حين يصيح :

تخطيء الدنيا المقادير ففي الـ　　ـعجز من لم يك في قعر النفق

اما هذه النظرات الصادقة النقية الفضية فاختيارنا لها يقلل من قيمة الشعر لانها كلها منتقاة .

متى ارت الدنيا تباهة خامل ... فلا ترتقب الا خمول بنيه
اذا المرء لم يجعل غناه ذريعة ... الى سؤدد فاعدد غناه من العدم
فلولا البعد ما طاب التداني ... ولولا البين ما عشق التلاقي
فقد يتعاشر الاقوام حينا ... بتلفيق التصنع والنفاق

او انه يعرب عن رأيه الانساني في مذاهب الحياة :

شرق وغرب فمهد الماهدين بما ... طالبت من ذملان الاينق الذمل
ولا تقل امم شتى ولا فرق ... فالارض من تربة والناس من رجل

يقول هذا مع حنينه الشديد الى الشام واهليها ولكن لمحات الشاعر تملك عليه حواسه فيأتي بها متفرقة

وهذه النظرات الثاقبة في الحياة مبثوثة في خلال هذا المديح الراقي النضر

نفى ايادي الزمان فينا فما ... نذكر من دهرنا سوى نوبه
والظلم ان يتقي الفتى سببا ... يجعله وصلة الى سببه

او ان يصيح بملء فيه:

اجدك ما المكروه الا ارتقابه ... وابرح مما حل ما يتوقع

وأما فخره بشعره وهو كل ثروته فنجده في كثير من المناسبات وقد يختلقها واكثر ما يكون في المديح:

قصائد من لا يستعير من حليها ... تخلفه محروما من العيش محرما
خوالد في الايام يبعثن مثلا ... فما تدرس الايام منهن معلما

وما اكثر ما كان يردد:

اذا محاسني اللاتي ادل بهـــا كانت ذنوبي فقل لي كيف اعتذر
اهز بالشعر اقواما ذوي وسن في الجهل لو ضربوا بالسيف ماشعروا
على نحت القوافي من مقاطعها وما علي لهـــم ان تفهم البقر

ج . اعادة بعض القصائد .

البحتري غزير المادة سيال القريحة ولكن في مظهره عجلا فاحيانا كان ينشد القصيدة مرتين كل مرة على حالة فهذه القصيدة التي يقول فيها

جملت فداك الدهر ليس بمنفك من الحادث المشكور والحدث المبكي

قالها اولا في محمد بن يوسف الثغري لما سجن ثم لما زار المعتز في السجن اعادها بحروفها .

وعند ما سأله المتوكل ان يقول شعرا في صلتـه بالفتح بن خاقان اعاد الابيات التي قالها في نسيم ومطلعها.

سيدي انت كيف اخلفت وعدي وتثـاقلت عن وفائي وعهدي

وقد غير فيها كلمة كما تقضي الحال وهي :

لاارتني الايام فقدك يا فتـ ـح ولا عرفتك ماعشت فقدي

و كان قد بدل (يافتح) ب (ماعشت)

ومن غرابة الاتفاق ان المتوكل والفتح ماتا معا فلم يعرف احدهما فقد الاخر ..

او ان يعيد المعاني بنفسها انظر القصيدة التي شرحناهـا في اول فصل المديح وقابلها بالقصيدة التي مطلعها

لي حبيب قد لجّ في الهجر جدا واعاد الصدود منه وابدا

تر اكثر ابياتها مكرورة لاتغير فيها غير القوافي .

(— كثرة الاعلام

قلنا ان ممدوحي البحتري ينيفون على المائة واكثرهم غير مشهور الا عند المتعمقين في التاريخ ففيهم الوزراء والعمال والقواد وهم عرضة للشهرة ولكن هناك من الكتاب والمترجمين والمنجمين وجلساء الخليفة الذين اغفلهم التاريخ والشراح اصبحوا في هذا العصر من الالغاز وقد يصرف الاديب في التعرف الى علم جهوداً وقد لايفوز بطائل .

ونذكر للتمثيل عرضا ابراهيم بن اسحاق بن ابرهيم : ومن الاطلاع نعلم انه كان رئيس الشرطة وكان طائيا من بني مصعب .

ومن هذا ابن الفياض ؟ كان في الكتاب وكان في القيادة

ومن محمد بن العباس الكلابي ؟ ومن هيثم بن هارون بن المعمر ومن هذا الجرجرائي والذفافي والقبل الى مئات ممن يذكرون في رءوس القصائد فضلا عن غيرهم من الذين يمرون في القصيدة .

وهناك اعلام امكنة من الشام الى العراق الى أرض العجم فالروم فارمنية فالثغور طبعاً الوف الاعلام التي تصرف من الجهود في مراجعة المعجمات وكتب التاريخ وتقويم البلدان حتى تتمكن من الوقوف على هذه المعاني .

وهناك اسماء مرافق وخطط كالقصور والبرك والمتنزهات والانهار ومنها مايكررها ويصفها حتى يقربها للاذهان ومنها مانشد معرفتها عن اذهان المتبحرين ونذكر مثلا انه ذكر (الزو) مرات في مديح

المتوكل واعاده في مديح المعتز وفي دائرة المعارف الاسلامية بامضاء مرغليوث انه قصر والحقيقة انها سفينة كان يركبها الخليفة في رحلته

هـ — اعمال دقيقة تتصل بالخلافة في القصر وفي الوزارة وفي الاعمال اهملها التاريخ وجاء البحتري يدونها منها العظيم الاهمية وهو مفصل في البحتري ومنها مايختلف فيه التاريخ والعمدة الشعر فقد قال المؤرخون انه لم يكن حاضرا مقتل المتوكل وهو يقول .

ادافع عنه باليدين ولم يكن　　ليثني الاعادي اعزل الليل حاسره
ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي　　درى الفاتك العجلان كيف اساوره

ومنهاماهو قليل الاهمية كقوله مثلا في مديح ابي عامر الخضر بن احمد

نبئت ان ابا المغمر زادهم　　ثأراً عشية جاء طالب ثاره
اتبعن عبد الله رمة احمد　　والنقع يتبعهن هيج مثاره
مابال قبر ابيكم في دوركم　　غلقا وقبر ابيهم في داره
الاتقدتم شلوه وعديدكم　　نوت الحصى والضعف من مقداره

وقد عددت له مئات من مثل هذه الحادثات المبهمات التي لو اتيح لنا التبسط فيها لكان معجما خاصا وتاريخاً وافيا لهذه الايام فضلا عن حادثات جاءت عرضا غير مقصودة او لمح اليها تلميحا وقد غابت معرفتها لبعدها عنا واغفال القدماء المعاصرين درسها وشرحها .

ز — البحتري طائي فخور بهذا النسب في كل شعره مهما يتنوع لذلك ترى انساب طي مبسوطة ومعادة في كثير من المناسبات

ان قومي قوم الشريف قديماً　　وحديثا ابوة وجدودا

واذا ما عددت يحيى وعمراً وأبانا وعامراً والوليدا
وعبيدا ومسهراً وجديا وتدولا وبحتراً وعتودا

سادات نبهان بن عمرو اقبلوا يرجون قحطبة لنا وشبيبا
وجحاجح الازد بن غوث حوله فرقا يهزون اللحاء الشيبا
والصيد من اود بن صعب انهم باتوا عليك حوادثا وخطوبا
وحماة حمدان بن اوسلة التي امسيت مأكولا بهم مشروبا

وهكذا ينثر هذه الانساب نثرا في شعره واحيانا ينظمها كما مثلنا ومن انساب طي يصل بالطبع الى انساب اليمن فيفخر بها ويمددها حيا حياً .

وقد جرى في اول امره على طريقة ابي تمام في الفخر بالطائية ثم اصبحت له عادة يقف فيها على حد حتى اذا وصف عربياً قيسيا يحتال حتى يصله بانساب اليمن اما بخؤولة او بسواها واذا ذكر الفرس لا يترك ذكر معونة الفرس لعرب اليمن في الجاهلية كما في صفة الايوان السينية كما سيجيء او يتصل بذكر هذه الاسماء واقعات وحادثات قديمة تذكرنا بشعر الفرزدق واضرابه تحتاج الى مراجعات كثيرة تزيد الاديب ثقافة

حـ عمود الشعر : يلزم هذا شعر البحتري خلافا لشعراء عصره العباسي وكل منهم له آفة الا البحتري فان شعره الحضري النفاذ النقي المشرق لا يشذ عن القواعد القديمة للشعر فهو بدوي وحضري في وقت واحد تقرأ كل هذا الشعر فلا تجد فيه كلمة نافرة لفظاً ولا معقدة معنى وقد لا يحتاج الاديب العادي الى معجم خلافا لابي تمام الذي يسمونه

امامة او لابن الرومي معاصره ومنافسه فكانه في بغداد او سر من الا يخالط بهذه الغوغاء ولا يسمع كلامهم وهو يعب من هذه الفارسية ويتغنى بمحامدها ولكنه لا يستعمل كلمة واحدة مما كان متعارفا عند الكتاب والادباء واذا ذكر الكلمات اليونانية فانه يجهد ان يضعها في قوالب عربية ومعلوم انه لا يستعمل الا الاعلام منها يقول في هجاء متهكما .

وقد بحثت العلوم اجمع واستظهرت حفظا مقالة السلف
ما اقتص واليس في القضاء وجابان وما سيرا من التنف
وما حكاه ذرونيوس وبطليموس من واضح لهم وخفي

كما انه ليس بمتمنت فان ذوقه العربي نقي نفاذ لا يهتم بالنقل بل بالاجتهاد والقياس عنده مجال واسع:

ولا يؤخر شغل اليوم يذخره الى غد ان يوم الاعجزين غد

فهو يقدر ان يقول كغيره العاجزين وهي الكلمة المستعملة ولكنه اراد الاعجزين فلم يمنعه الاستعمال

وهو جد بعيد عن التخريج الاعرابي والجوازات القبيحة وقد ترك لنا حماسة من مختار الشعر جمع فيها لستمائة شاعر في الجاهلية والاسلام مما يدل على سعة اطلاعه ولا ازال اذكر بيتا يتمثل به العروضيون للربيع بن زياد العبسي

افبعد مقتل مالك بن زهير ترجو النساء عواقب الاطهار

فان وضع ابن زهير غير موزون فمنهم من وزنه بتصغير زهير وهو قبيح جدا ومنهم من رواه على لفظه وزاحف قبيحا والحقيقة ان

ان الشاعر قاله في ساعة غضب خرج فيها عن القواعد والاوزان وما انا وله وجاء البحتري رويه:

أفبعد مقتـــل مالك بمضيعة ترجو النساء عواقب الاطهـار

ولا يعني هذا انه غير امين في النقل بل ان هذا الذوق ينبو عن هذا القبيح يلحق بالشعر .ونقصد ان البحتري نقى شعره وتنخله حتى طرح منه كل ما يشتم منه الجفاء والنفور.

ولا يمكننا ان نغفل خاصية تلازم شعر البحتري وهي السلاسل الذهبية ونعني بها ان البحتري ينظم شعره متواصل الاجزاء متساوق التراكيب واظن انهم يذكرونها بالنسبة الى شعر ابي تمـام الذي لم يكن يهتم بهذا التساوق والانسجام تأخذ قصيدة لابي تمام فتجد فيها السلسل الرائع الذي ثم لا تلبث ان تراه يخرج حالا الى التعقيـــد والحوشي واحيانا الى غرابة الاستعارات اما البحتري فان جميع شعره يجري على نسق واحد قريب المأخذ آخذ بعضه برقاب بعض